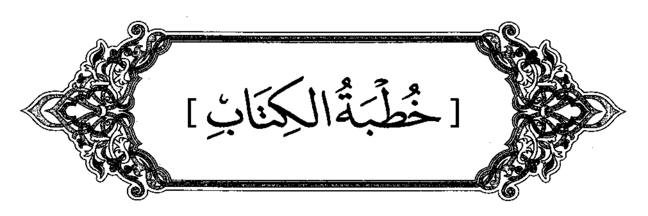
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

أخبرنا الشيخ الأديب الفاضل **أبو شجاع فارس بن الحسين السُّهْرَوَرْديُّ** رضي الله عنه بقراءتي عليه بمسجد رئيس الرؤساء من دار الخلافة ، **في أواخر سنة ست وثمانين وأربع مئة** ، قال : قرىء هـٰذا الكتاب علىٰ أقضى القضاة **أبي الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري الماوَرْديِّ** رحمه الله تعالىٰ في المسجد الجامع بواسط وأنا حاضر أسمع ، **في شهور سنة إحدىٰ وعشرين وأربع مئة** ، قيل له : قلتَ[1] :



[خُطْبَةُ الكِتَابِ]

الحمد لله ذي الطَّوْل والآلاء ، **وصلى الله علىٰ سيدنا محمد** خاتَم الرسل والأنبياء ، **وعلىٰ آله وصحابته الأتقياء** .

أما بعد : فإن شرفَ المطلوب بشرف نتائجه ، وعِظَمَ خطره بكثرة منافعه ، **وبحسَب منافعه تجب العناية به** ، وعلىٰ قدر العناية به يكون اجتناء ثمره ، **وأعظم الأمور خَطَراً وقَدْراً** ، وأعمُّها نفعاً ورِفْداً[2] . . **ما استقام به الدين والدنيا** ، وانتظم به صلاح الآخرة والأولىٰ ؛ **لأن باستقامة الدِّين** تصحُّ العبادة ، **وبصلاح الدنيا** تتمُّ السعادة .

وقد توخَّيتُ بهـٰذا الكتاب الإشارةَ إلىٰ آدابهما ، وتفصيلَ ما أُجمِل من أحوالهما ، علىٰ أعدل الأمرين من إيجازٍ وبسط ، **أجمع فيه بين تحقيق الفقهاء** ، وترقيق الأُدباء ، فلا ينبو عن فَهْم ، ولا يدِقُّ في وَهْم ، **مستشهداً** من **كتاب الله** ـ جل اسمه ـ بما يقتضيه ، **ومن سنن رسول الله** صلى الله عليه وسلم بما يُضاهيه ، **ثم مُتْبعاً ذلك بأمثال الحكماء** ، وآداب البلغاء ، وأقوال الشعراء ؛ لأن القلوب ترتاحُ إلى الفنون المختلفة ، وتسأمُ الفنَّ الواحد .

---

(١) هـٰذه الديباجة زيادة من (أ) .

(٢) **الرفد** : العطاء والصلة .

وقد قال علي بن أبي طالب عليه السلام : (**إنَّ القلوبَ تَمَلُّ كما تَمَلُّ الأبدانُ ؛ فأَهدوا إليها طرائفَ الحكمة**)[1] .

وكان المأمون يتنقَّل كثيراً في داره من مكانٍ إلىٰ مكان ، ويُنشد قول أبي العتاهية : [من البسيط]

لا يُصلِحُ النفسَ إذ كانت مُدبَّرةً   إلا التنقُّـلُ مـن حـالٍ إلـىٰ حـالِ[2]

وجعلتُ ما تضمنه هٰذا الكتاب من ذلك خمسة أبواب :

فالباب الأول : في فضل العقل ، وذم الهوىٰ .

والباب الثاني : في أدب العلم .

والباب الثالث : في أدب الدين .

والباب الرابع : في أدب الدنيا .

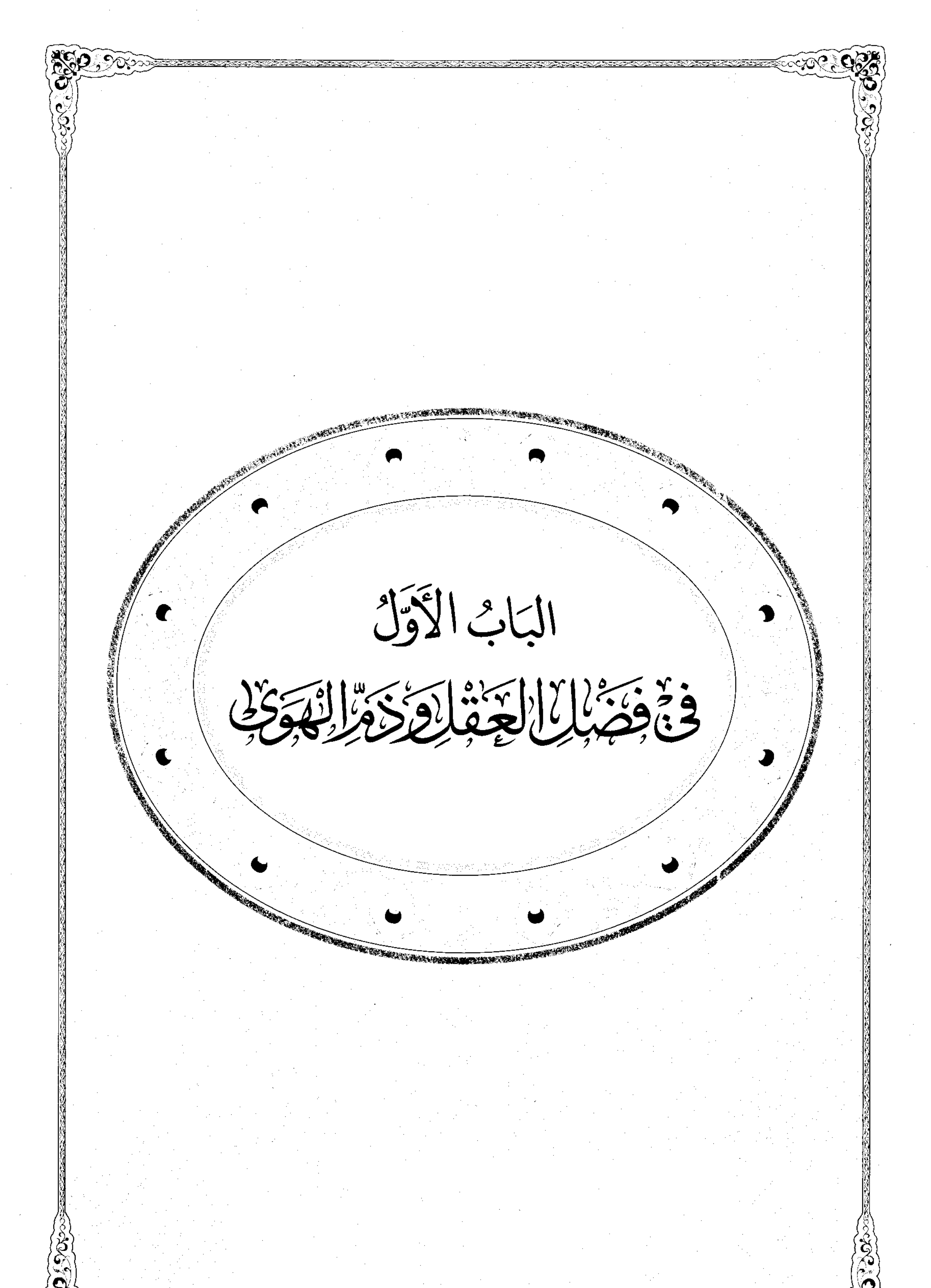
والباب الخامس : في أدب النفس .

وأنا أستمد اللهَ تعالىٰ حُسنَ توفيقه ومعونته ، وأستودعه حفظ موهبته بطَوْله ومشيئته ، وهو حسبي من معينٍ حفيظ .

---

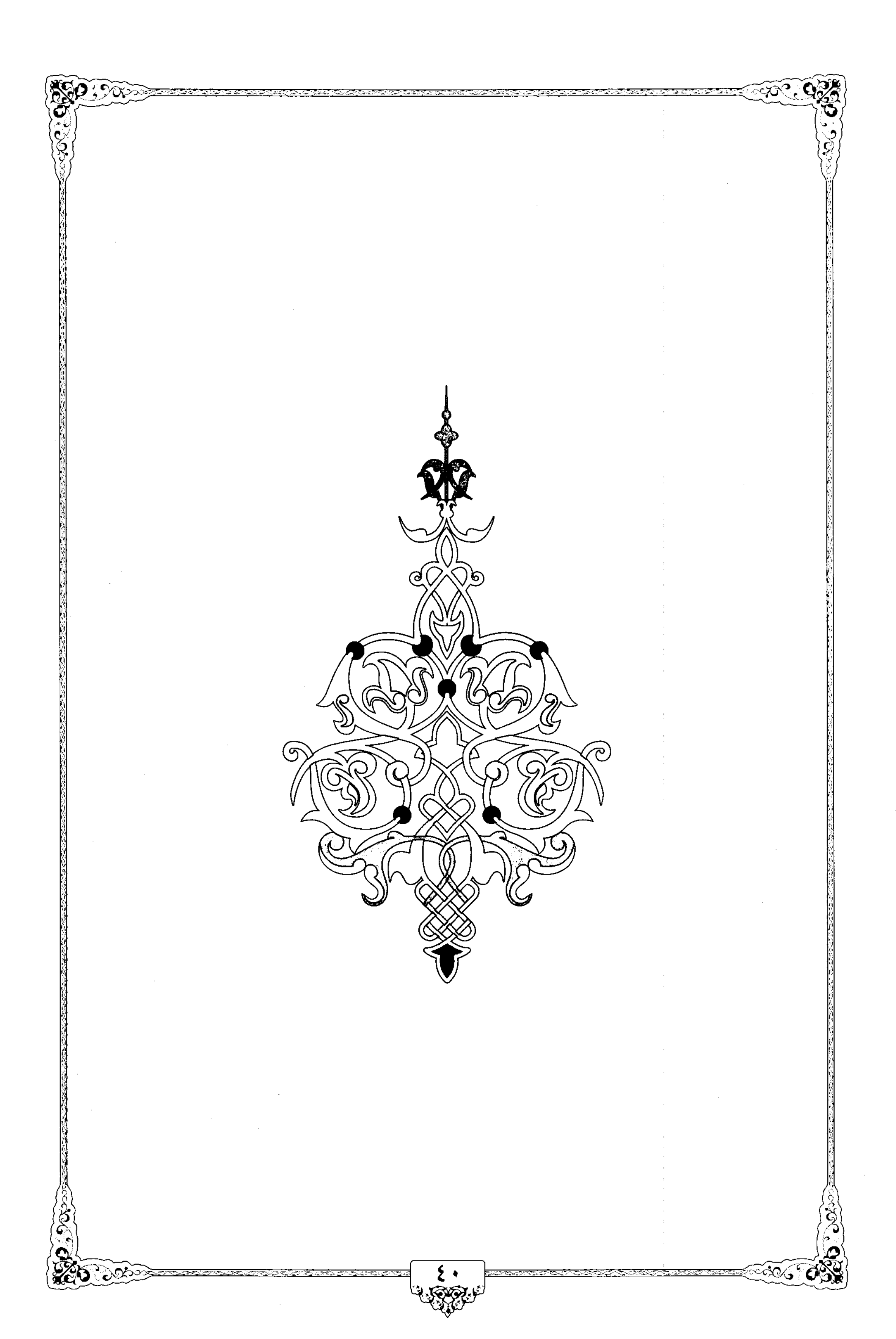
(١) رواه الخطيب في « الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع » (١٤٢٨) ، وابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » (٦٥٩) .

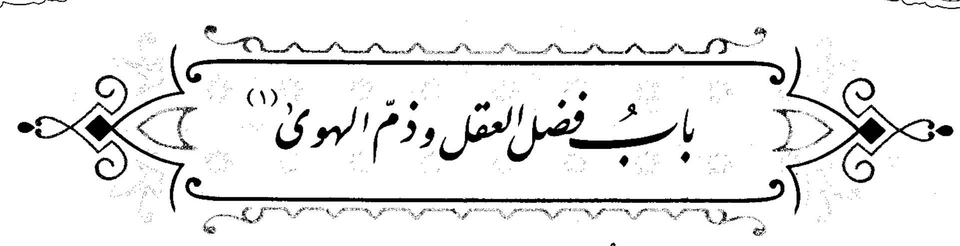
(٢) البيت في « ديوانه » (ص ٣٢١) ، والخبر أورده الراغب الأصفهاني في « محاضرات الأدباء » (٢/ ٦٩٠) .



البَابُ الأوَّلُ

في فضلِ العقْلِ وذمِّ الهوى





بابُ فضل العقل وذمّ الهوىٰ[1]

اعلم : أن لكل فضيلةٍ أُسّاً ، ولكل أدبٍ يَنبوعاً ، **وأسُّ الفضائل وينبوع الآداب هو العقل** ؛ الذي جعله الله سبحانه للدين أصلاً ، وللدنيا عماداً ، **فأوجب التكليفَ بكماله**[2] ، وجعل الدنيا مدبَّرة بأحكامه ، **وألَّف به بين خلقه مع اختلاف** هِمَمهم ومآربهم ، وتبايُن أغراضهم ومقاصدهم ، **وجعل ما تعبَّدهم به قسمين** :

قسماً وجب بالعقل ، فوكَّده الشرع .

وقسماً جاز في العقل ، فأوجبه الشرع ، وكان **العقل** عليهما عياراً .

ورُوي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « **ما اكتسبَ المرءُ مثلَ عقلٍ** : يَهدي صاحبَه إلىٰ هُدىً ، أو يردُّه عن ردىً »[3] .

وروي عن النبي عليه السلام أنه قال : « **إن لكلِّ شيءٍ دعامةً ، ودعامةُ عمل المرءِ عَقْلُه** ؛ فبقَدْرِ عَقْلِه تكونُ عبادتُه لربِّه ، **أَما سمعتم إخبار الله تعالىٰ عن قول الفاجر** : ﴿ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ ؟ »[4] .

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : (**أصلُ الرجل عَقْلُه** ، وحَسَبُه دينُه ، ومروءتُه خُلقُه)[5] .

وقال الحسن البصري رحمه الله : (**ما استودعَ اللهُ أحداً عقلاً إلا استنقذَه به يوماً ما**)[6] .

---

(١) جمعهما في بابٍ واحد لمناسبة الضدية بينهما ؛ ولأن الأشياء تنكشف بأضدادها ، فمدحُ العقل يستلزم ذم ضده وبالعكس .

(٢) أي : بإدراك كماله الأول وهو البلوغ ؛ إقامة للسبب الظاهر مقام حكمه .

(٣) رواه البيهقي في « شعب الإيمان » (٤٣٣٨) عن سيدنا عمر رضي الله عنه .

(٤) رواه الهيثمي في « بغية الباحث » (٨٤٠) ، وأورده الديلمي في « الفردوس » (٤٩٩٩) عن سيدنا أبي سعيد الخدري رضي الله عنه .

(٥) رواه البيهقي في « الكبرىٰ » (١٠/ ١٩٥) ، وأخرج نحوه مرفوعاً عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

(٦) رواه ابن أبي الدنيا في « العقل وفضله » (٩٢) ، وأورده الديلمي في « الفردوس » (٦٢٧٩) مرفوعاً عن سيدنا أنس رضي الله عنه .

وقال بعض الحكماء : (**العقلُ أفضلُ مرجوٍّ ، والجهلُ أنكىٰ عدوٍّ**) .

وقال بعض الأدباء : (**صديقُ كلِّ امرئٍ عقلُه ، وعدوُّه جهلُه**) .

وقال بعض البلغاء : (**خيرُ المواهب العقلُ ، وشرُّ المصائب الجهلُ**)[1] .

وقال بعض الشعراء وهو إبراهيم بن حسان[2] : [من الطويل]

يَزِينُ الفتىٰ في الناسِ صحَّةُ عَقْلِهِ ... وإنْ كان محظوراً عليه مكاسبُهْ
يَشينُ الفتىٰ في الناسِ قِلَّةُ عَقْلِهِ ... وإنْ كرُمتْ أعراقُه ومَناسبُهْ
يعيشُ الفتىٰ بالعقل في الناس إنه ... على العقل يجري علمُه وتجاربُهْ
وأفضلُ قَسْمِ اللهِ للمرء عَقْلُهُ ... فليسَ مِنَ الأشياءِ شيءٌ يقاربُهْ
إذا أكملَ الرحمـٰنُ للمرء عَقْلَهُ ... فقد كمَلَتْ أخلاقُه ومآربُهْ

واعلم : أن بالعقل تُعرَف حقائق الأمور ، ويُفصَل بين الحسنات والسيئات ؛ **وقد ينقسم قسمين** : غريزيّ ، ومكتسَب .

فالغريزي : هو العقل الحقيقي ، وله حدٌّ يتعلَّق به التكليف ، لا يتجاوزه إلىٰ زيادة ، ولا يَقصُر عنه إلىٰ نقصان ، **وبه يمتاز الإنسان من سائر الحيوان** ، فإذا تم في الإنسان . . **سُمِّي عاقلاً** ، **وخرج به إلىٰ حد الكمال** ؛ كما قال صالح بن عبد القدوس[3] : [من الطويل]

إذا تَمَّ عَقْلُ المرءِ تمَّتْ أُمورُهُ ... وتمَّتْ أياديه وتمَّ ثناؤُهُ

ورُوي عن الضحّاك في قوله تعالىٰ : (﴿ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا ﴾ أي : **مَن كان عاقلاً**)[4] .

---

(١) أورده الخطيب في « الزهد والرقائق » (ص ٨٨) عن أبي الحسن بن كنجك .

(٢) الأبيات في « نهاية الأرب » (٣/ ٢٣٦) منسوبة لابن دريد ، وهي في « ديوانه » (ص ٤١) ، وفي « العقد الفريد » (٢/ ٢٥٢) منسوبة لمحمد بن يزيد .

(٣) نسبه في « روضة العقلاء » (١/ ٩٧) لعبد العزيز بن سليمان الأبرش .

(٤) رواه الطبري في « تفسيره » (١٢/ ٢٣/ ٢٧) .

واختلف الناس فيه وفي صفته علىٰ مذاهبَ شتّىٰ :

فقال قوم : **هو جوهرٌ لطيفٌ يُفصَل** به بين حقائق المعلومات .

ومن قال بهٰذا القول اختلفوا في محله ؛ فقالت طائفة منهم : **محله الدماغ** ؛ لأن الدماغ محل الحِسِّ ، وقالت طائفة أخرىٰ منهم : **محله القلب** ؛ لأن القلب مَعدِن الحياة ، ومادة الحواسّ .

وهٰذا القولُ في العقل بأنه (جوهر لطيف) **فاسدٌ من وجهين** :

ـ **أحدهما** : أن الجواهر متماثلة ، فلا يصح أن يوجب بعضُها ما لا يوجبه سائرُها ، ولو أوجب سائرُها ما يوجبه بعضها . . لاستغنى العاقل بوجود نفسه عن وجود عقله .

ـ **والثاني** : أن الجوهر يصح قيامه بذاته ، فلو كان **العقل** جوهراً . . لجاز أن يكون عقلٌ بغير عاقل ؛ كما جاز أن يكون جسمٌ بغير عقل ، فامتنع بهٰذين أن يكون العقل جوهراً .

وقال آخرون : **العقل هو المدرِكُ للأشياء علىٰ ما هي عليه من حقائق المعنىٰ** .

وهٰذا القول وإن كان أقربَ مما قبله . . **فيبعد من الصواب من وجهٍ واحد** ؛ وهو أن الإدراك من صفات الحي ، والعقل عَرَضٌ يستحيل ذلك منه ؛ كما يستحيل منه أن يكون ملتذّاً أو أَلِماً أو مشتهياً(١) .

وقال آخرون من المتكلِّمين : **العقل هو جملةُ العلوم الضرورية** ، وهٰذا الحدُّ غير محصور ؛ لما تضمَّنه من الإجمال ، وتناوله من الاحتمال ، **والحدُّ إنما هو** : بيان المحدود بما ينفي عنه الإجمال والاحتمال .

وقال آخرون ـ وهو القول الصحيح ـ : **إن العقل هو العلمُ بالمُدرَكات الضرورية** .

وذلك نوعان : **أحدهما** : ما وقع عن درك الحواس ، **والثاني** : ما كان مبتدأً في النفوس .

---

(١) أو فرِحاً أو محزوناً ، ونحو ذلك مما هو من صفات الحي ؛ لاستلزامه قيام العَرَض بِعَرض .

فأما ما كان واقعاً عن درك الحواس. . فمثل المَرئيّات المدركة **بالنظر** ، والأصوات المدرَكة **بالسمع** ، والطُّعوم المدرَكة **بالذوق** ، والروائح المدرَكة **بالشم** ، والأجسام المدرَكة **باللمس** .

فإذا كان الإنسان ممَّن **لو أدرك بحواسه** هٰذه الأشياء لعلم . . **ثبت له هٰذا النوع من العلم** ؛ لأن خروجه في حال تغميض عينيه من أن يُدرك بهما ويَعلم . . لا يُخرجه من أن يكون كاملَ العقل من حيث عُلِمَ من حاله : **أنه لو أدرك . . لعَلم** .

وأما ما كان مبتدأً في النفوس. . فكالعلم بأن الشيء لا يخلو من وجودٍ أو عدم ، وأن الموجود لا يخلو من حدوثٍ أو قِدَم ، **وأن من المُحال اجتماعَ الضدَّين** ، وأن الواحد أقلُّ من الاثنين ، **وهٰذا النوع من العلم لا يجوز أن ينتفي عن العاقل** مع سلامة حاله وكمال عقله ، وإذا صار عالماً بالمُدرَكات الضرورية من هٰذين النوعين . . فهو كامل العقل .

وسُمِّي بذلك تشبيهاً بعَقْل الناقة ؛ لأن العقل يمنع الإنسان من الإقدام علىٰ شهواته إذا قبُحَت ، كما يمنع العِقالُ الناقة من الشُّرود إذا نفرت ؛ ولذلك قال عامر بن عبد قيس : (**إذا عقَلَك عَقْلُك عما لا ينبغي . . فأنت عاقل**)[1] .

وقد جاءت السنة بما يؤيد هٰذا القول في العقل ؛ وهو ما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « **العقلُ نورٌ في القلب ؛ يُفرِّقُ** به بين الحقِّ والباطل »[2] .

وكل مَن نفىٰ أن يكون العقل جوهراً أثبت محلَّه في القلب ؛ **لأن القلب محلُّ العلوم كلِّها** ، قال الله تعالىٰ : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا ﴾ ، فدلت هٰذه الآية علىٰ أمرين : **أحدهما** : أن العقل علم ، **والثاني** : أن محلَّه القلب .

---

(١) رواه البيهقي في « شعب الإيمان » (٤٣٧٢) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٢٦/ ٢٧) .
(٢) أورده في « العقد الفريد » (٢/ ٢٤٨) .

وفي قول الله عز وجل : ﴿ يَعۡقِلُونَ بِهَا ﴾ تأويلان :

أحدهما : يعلمون بها .

والثاني : يعتبرون بها ، فهـٰذا جملة القول في العقل الغريزي .

***

وأما العقل المكتسَب . . فهو نتيجة العقل الغريزيّ ، وهو ثَقابة المعرفة ، وصحة السياسة ، وإصابة الفكر ، وليس لهـٰذا حدٌّ ؛ **لأنه يَنمِي إن استُعمِل** ، ويَنقُص إن أُهمِل ، **ونماؤه يكون بأحد وجهين** :

إما بكثرة الاستعمال إذا لم يعارضه مانعٌ من هوىً ، ولا صادٌّ عن شهوة ؛ كالذي يحصل لذوي الأسنان من الحُنْكة وصحة الرَّوِيَّة ، بكثرة التجارب وممارسة الأمور ؛ ولذاك حَمِدت العرب آراء الشيوخ ، حتىٰ قالوا : (**المشايخ أشجار الوَقار** ، **ومنابع الأخبار** ، لا يطيش لهم سَهْم ، ولا يسقط لهم وَهْم ؛ **إن رأوك في قبيح** . . صدُّوك ، **وإن أبصروك علىٰ جميل** . . أمدُّوك)[1] .

وقالوا : (**عليكم بآراء الشيوخ** ؛ فإنهم إن فقدوا ذكاءَ الطبع . . **فقد مرَّت علىٰ عيونهم وجوهُ العِبَر** ، وتصدَّت لأسماعهم آثار الغِيَر)[2] .

وقيل في منثور الحِكَم : (**مَن طال عُمرُه** . . **نقَصَت قوّةُ بدنه** ، وزادت قوّةُ عقله) .

وقيل فيه : (**لا تدَعُ الأيامُ جاهلاً إلا أدَّبته**) .

وقال بعض الحكماء : (**كفىٰ بالتَّجارِب تأدُّباً** ، **وبتقلُّب الأيام عِظةً**)[3] .

وقال بعض البلغاء : (**التجربةُ مرآةُ العقل** ، **والغِرّةُ ثمرةُ الجهل**)[4] .

---

(١) أورده في « ربيع الأبرار » (٣/ ١٣٤) .

(٢) أورده في « محاضرات الأدباء » (١/ ٥٤) .

(٣) أورده في « لباب الآداب » (ص ٢٣٥) ونسبه لأرسطاطاليس .

(٤) أورده في « لباب الآداب » (ص ٦٨) ونسبه للصغاني في « الفرائد والقلائد » ، **والغرة** : الغفلة والانخداع بالأماني الباطلة .

وقال بعض الأدباء : (كفىٰ مُخبِراً عمَّا بقي ما مضىٰ ، **وكفىٰ عِبَراً لأولي الألباب ما جرَّبوا**)[1] .

وقال بعض الشعراء[2] : [من الطويل]

أَلَـمْ تَـرَ أنّ العَقْـلَ زَيـنٌ لأهلِـهِ   ولٰكنْ تمامُ العقلِ طُولُ التَّجارِبِ

وقال آخر[3] : [من الطويل]

إذا طالَ عُمْرُ المرءِ في غيرِ آفةٍ   أفادَتْ له الأيّامُ في كَرِّها عَقْلا

وأما الوجه الثاني[4] . . فقد يكون بفَرْط الذكاء وحُسن الفِطْنة ، وذلك جُودة الحَدْس في زمانٍ غير مُمهِل للحَدْس[5] .

فإذا امتزج هٰذا بالعقل الغريزي . . صارت نتيجتهما نموَّ العقل المكتسب ؛ كالذي يكون في الأحداث من وُفور العقل ، وجُودة الرأي ؛ حتىٰ قال هَرِم بن قُطْبة حين تنافر إليه عامر بن الطُّفَيل وعلقمةُ بن عُلاَثَةَ : (**عليكم بالحديثِ السِّنِّ ، الحديدِ الذِّهْن**) ، ولعل هَرِماً أراد أن يدفعهما عن نفسه فاعتذر بما قال ، لٰكنْ لم ينكرا قوله ؛ إذعاناً للحق ، فصارا إلىٰ أبي جهل ؛ لحداثة سنِّه ، وحِدَّة ذهنه ، فأبىٰ أن يحكم بينهما ، فرجعا إلىٰ هَرِم فحكم .

وفيه يقول لبيد[6] : [من مشطور الرجز]

يــا هَــرِمُ ابـنَ الأكـرمِيـنَ مَنصِبَـا
إنَّــكَ قــد أُوتيــتَ حُكْمــاً مُعجِبَـا

---

(١) أورده في « العقد الفريد » (٢/ ٤٤٢) .
(٢) نسبه في « روضة العقلاء » (١/ ١٠٨) للمنتصر بن بلال الأنصاري .
(٣) أورده في « سراج الملوك » (١/ ٢٧٨) ، و« المستطرف » (ص ٥٣) دون نسبة .
(٤) أي : من الوجهين اللذين بهما نماء العقل المكتسب .
(٥) **الحدس** : الظن والتخمين ، وتوقع الأمور ، فتكون كما قال .
(٦) البيتان في « ديوانه » (ص ٥٢) ، والخبر في « الديباج » (ص ٨٨) .

وقد قالت العرب : (**عليكم بمشاورة الأحداث** ؛ فإنهم يَنتِجون رأياً لم يَفُلَّهُ طولُ القِدَم ، ولا استولت عليه رطوبة الهَرَم)[1] .

وقال الشاعر[2] : [من الوافر]

رأيتُ العَقْلَ لم يكنِ انتهاباً ... ولم يُقسَمْ علىٰ عدَد السِّنينَا
ولو أنَّ السِّنينَ تقاسمَتْهُ ... حوى الآباءُ أَنصِبةَ البَنِينَا

حكى الأصمعيُّ قال : (قلت لغلام حَدَثٍ من أولاد العرب كان يحادثني فأَمتعني بفصاحته وملاحته : **أيسرُّكَ أن يكون لك مئةُ ألف درهم وأنّك أحمقُ ؟** قال : لا والله .

قلت : ولِمَ ؟ قال : **أخاف أن يجنيَ عليَّ حُمْقي جنايةً تذهب بمالي ، ويبقىٰ عليَّ حُمْقي**)[3] .

فانظر إلىٰ هـٰذا الصبي كيف استخرج بفَرْط ذكائه ، واستنبط بجُودة قريحته ما لعلّه يدِقُّ علىٰ مَن هو أكبر منه سنّاً ، وأكثر تجربةً .

وأحسنُ من هـٰذا الذكاءِ والفطنة : ما حكى ابنُ قتيبة : (أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه مرَّ بصبيان يلعبون وفيهم عبد الله بن الزبير ، فهربوا منه إلا عبدَ الله ، فقال له عمر رضي الله عنه : **ما لكَ لم تهرب مع أصحابك ؟!** فقال : يا أميرَ المؤمنين ؛ **لم أجْنِ فأخافَكَ ، ولم يكنْ بالطريق ضِيقٌ فأُوسعَ لك**)[4] .

فانظر إلىٰ ما تضمنه هـٰذا الجواب من الفِطْنة ، وقوّة المُنّة ، وحُسن البديهة ، كيف نفىٰ عنه اللوم ، وأثبت له الحجّة ، **وليس للذكاء غايةٌ ، ولا لجُودة القريحة نهايةٌ** .

---

(١) انظر « سراج الملوك » (١/ ٢٩٧) .
(٢) البيتان في « معجم الأدباء » (٤/ ٨٧) ونسبهما للحسين بن محمد الرافقي .
(٣) أورده النويري في « نهاية الأرب » (٣/ ٣٥٧) .
(٤) عيون الأخبار (٢/ ١٩٧) .

حُكي : أن سليمان بن عبد الملك أمر الفرزدقَ بضرب أعناق أُسارىٰ من الروم ، فاستعفاه الفرزدقُ فلم يفعل ، وأعطاه سيفاً لا يقطع شيئاً ، فقال الفرزدق : بل أضرِبُهم بسيف أبي ؛ رَغْوَان مُجاشعٍ ؛ يعني : سيفَ نفسه(١) ، فقام فاستلَّ سيفه فضرب به عنقَ روميٍّ منهم ، فنَبا السيفُ عنه ، فضحك سليمانُ ومَن حوله ، فقال الفرزدق(٢) : [من البسيط]

أَيَعجبُ الناسُ أنْ أضحَكْتُ سيِّدَهُمْ   خليفـةَ الله يُستسقَـىٰ بـه المَطَـرُ
لم يَنْبُ سيفيَ من رُعْبٍ ولا دَهَشٍ   عـن الأسيـرِ ولٰكـنْ أُخِّـرَ القَـدَرُ
ولـن يُقـدِّمَ نفسـاً قبـل مِيْتَتِهـا   جمعُ اليدين ولا الصَّمْصامةُ الذَّكَرُ

ثم غَمَدَ سيفَه وهو يقول : [من مشطور الرجز]

مـا إنْ يُعـابُ سيِّـدٌ إذا صَبَـا
ولا يُعـابُ صـارمٌ إذا نَبَـا
ولا يُعـابُ شـاعـرٌ إذا كَبَـا

ثم جلس وهو يقول : كأني بابن المراغة قد هجاني فقال(٣) : [من الطويل]

بسيفِ أبي رَغْوانَ سيفِ مُجاشعٍ   ضربْتَ ولم تضرِبْ بسيفِ ابنِ ظالمِ

وقام وانصرف .

وحضر جرير ، فخُبِّر الخبرَ ولم يُنشَدِ الشعرَ ، فأنشأ يقول(٤) : [من الطويل]

بسيفِ أبي رَغْوانَ سيفِ مُجاشعٍ   ضربْتَ ولم تضرِبْ بسيفِ ابنِ ظالمِ

ثم قال : يا أميرَ المؤمنين ؛ كأني بابن القين قد أجابني فقال(٥) :

---

(١) بسيف أبي : الياء ضمير المتكلم ، رَغْوان : عطف بيان ؛ لأنه من آبائه ، وهو : لقب لمجاشع بن دارم ، لُقب به لفصاحته وجهارة صوته .
(٢) الأبيات في « ديوانه » (١/ ٣٢٢) .
(٣) ابن المراغة : لقبٌ لجرير ، وفيه إهانة وشتم له .
(٤) البيت في « ديوان جرير » (٢/ ١٠٠٥) ، وابن ظالم : هو يزيد بن المهلب بن أبي صفرة ، وأبو صفرة : هو ظالم بن سراقة الكندي .
(٥) ابن القين : الفرزدق ، والقين : الحداد ، وهو إيماء إلىٰ أنه كاذب في تلقيبه لجرير بابن المراغة .

ولا نقتُلُ الأَسرىٰ ولٰكنْ نفكُّهُمْ إذا أثقَلَ الأعناقَ حَمْلُ المَغارمِ

فاستحسن سليمانُ حَدْسَ الفرزدق علىٰ جرير .

ثم أُخبر الفرزدق بشعر جرير ولم يُخبَر بحدسه ، فقال الفرزدق[١] : [من الطويل]

كذاكَ سُيوفُ الهِنْدِ تَنْبُو ظُباتُها وتقطَعُ أحياناً مَناطَ التمائمِ

ولا نقتُلُ الأَسرىٰ ولٰكنْ نفكُّهُمْ إذا أثقَلَ الأعناقَ حَمْلُ المَغارمِ

وهل ضَربةُ الرُّوميِّ جاعلةٌ لكُمْ أباً عن كُلَيبٍ أو أخاً مثلَ دارمِ[٢]

فشاع حديث الفرزدق بهٰذا ، حتىٰ حُكي أن المهديَّ أُتي بأسرىٰ من الروم فأمر بقتلهم ، وكان عنده شَبيبُ بن شيبةَ فقال له : **اضربْ عنقَ هٰذا العِلْج** .

فقال : يا أميرَ المؤمنين ؛ قد عرفتَ ما ابتُلي به الفرزدق فعُيِّر به قومُه إلى اليوم ، فقال : **إنما أردتُ تشريفَك** ، **وقد أعفيتُك** ، وكان أبو الهول الشاعرُ حاضراً فقال : [من الطويل]

جَزِعتَ مِنَ الرُّوميِّ وهْوَ مُقيَّدٌ فكيفَ ولو لاقيتَهُ وَهْوَ مُطلَقُ

دعاكَ أميرُ المؤمنين لقتلهِ فكاد شَبيبٌ عند ذلك يَفْرَقُ

فنَحِّ شَبيباً عن قِراعِ كتيبةٍ وأَدْنِ شَبيباً مِن كلامٍ يُلفَّقُ[٣]

وليس العجبُ من خبر الفرزدق ـ إن صح ـ **من جودة القريحتين** ؛ ولٰكنْ من اتفاق الخاطرين ، ولمثل ذلك قالت الحكماء : (**آيةُ العقل** : سرعةُ الفَهْم ، **وغايتُه** : إصابةُ الوَهْم) .

❁ ❁ ❁

وليس لمن مُنِح جُودةَ القريحة وسرعةَ الخاطر عَجْزٌ عن جوابٍ وإن أَعضلَ ؛ كما قيل لعلي عليه السلام : كيف يحاسبُ اللهُ العبادَ علىٰ كثرة عَددهم ؟ فقال : (**كما يرزقُهم علىٰ كثرة عَددهم**)[٤] .

---

(١) الأبيات في « ديوانه » (٢/ ٣٨٦) ، **والظُّبات** ـ جمع ظُبة ـ : وهو حد السيف الذي يُضرب به .

(٢) الخبر في « الشعر والشعراء » (١/ ٤٧٩) ، و« مفتاح العلوم » (ص ٧٠١) .

(٣) الخبر في « معاهد التنصيص » (٤/ ٩٩) وما بعدها .

(٤) أورده ابن عبد البر في « بهجة المجالس » (١/ ١٣٩) .

وقيل لعبد الله بن عباس رضي الله عنهما : أين تذهب الأرواح إذا فارقتِ الأجسادَ ؟ فقال : (**أين تذهب نار المصابيح عند فناء الأَدْهان ؟**)[1] .

وهـٰذان الجوابان جوابا إسكاتٍ ، تضمّنا دليلَي إذعان ، وحجّتَي قهر .

ومن غير هـٰذا الفن وإن كان مُسكتاً . . **ما حُكي** : أن إبليس ـ لعنه الله ـ حين ظهر لعيسى ابن مريم عليه السلام قال له : ألست تقول : (**إنه لن يصيبَكَ إلا ما كتب الله عليك ؟**) قال : نعم .

قال : **فارمِ بنفسك من ذِرْوة هـٰذا الجبل** ؛ فإنه إن يقدَّر لك السلامةُ . . تسلمْ ! !

فقال له : (**يا ملعون ؛ إن لله أن يختبر عبادَه ، وليس للعبد أن يختبر ربه**)[2] .

ومثل هـٰذا الجواب لا يُستغرب من أنبياء الله تعالى الذين أمدَّهم بوحيه ، وأيدهم بنصره ، **وإنما يُستغرَب ممَّن يلجأ إلىٰ خاطره** ، ويعوِّل علىٰ بديهته .

وروىٰ قُثَمُ بن العبّاس رضي الله عنهما قال : قيل لعلي بن أبي طالب عليه السلام : **كم بين السماء والأرض** ؟ فقال : (**دعوةٌ مستجابة**) ، قيل : فكم بين المشرق والمغرب ؟ قال : (**مسيرةُ يومٍ للشمس**)[3] .

فكان هـٰذا السؤالُ من سائله : **إما اختباراً وإما استبصاراً** ، فصدر عنه من الجواب ما أسكته .

فأمّا إذا اجتمع هـٰذان الوجهان في العقل المكتسَب ، وهو ما يَنميه فَرْطُ الذكاء بجُودة الحَدْس ، وصحةُ القريحة بحُسْن البديهة ؛ مع ما يَنمِيه الاستعمالُ بطول التجارب ، ومرورُ الزمان بكثرة الاختبار . . **فهو العقلُ الكاملُ على الإطلاق** ، في الرجل الفاضل بالاستحقاق .

---

(١) أورده في « الحور العين » (ص ٢٣٤) .

(٢) الخبر في « الأذكياء » (ص ٢٥) ، و« الكشكول » (٢/ ٢٧٨) .

(٣) الخبر في « البيان والتبيين » (٣/ ٢٧٤) ، و« عيون الأخبار » (٢/ ٢٠٨) .

رویٰ أنس بن مالك رضي الله عنه قال : أُثنِيَ علىٰ رجلٍ عند رسول الله صلى الله عليه وسلم بخيرٍ ، فقال : « **كيف عَقْلُه ؟** » قالوا : يا رسولَ الله ؛ إنّ من عبادته . . . ، إنّ من خُلقه . . . ، إنّ من فَضله . . . ، إنّ من أدبه . . . ، فقال : « **كيف عقلُه ؟** » قالوا : يا رسولَ الله ؛ نُثني عليه بالعبادة وأصناف الخير وتسألُنا عن عَقْله ؟! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « **إنّ الأحمقَ العابدَ** يُصيبُ بجَهْله أعظمَ مِن فُجور الفاجرِ ، **وإنَّما يُقرَّبُ الناسُ من ربِّهم بالزُّلَف علىٰ قَدْر عُقولِهم** »(١) .

* * *

واختلفَ الناسُ في العقل المكتسَب إذا تناهىٰ وزاد في الإنسان : **هل يكون فضيلةً ، أم لا ؟**

فقال قوم : **لا يكون فضيلةً** ؛ لأن الفضائل هيئاتٌ متوسّطة بين فضيلتين ناقصتين ؛ كما أن الخير متوسِّطٌ بين رذيلتين ، **فما جاوز التوسُّطَ . . خرج عن حد الفضيلة** .

وقد قالت الحكماء للإسكندر : (**أيها الملك ؛ عليكَ بالاعتدال في كل الأمور** ؛ فإنّ الزيادة عيب ، والنقصان عجز)(٢) .

هٰذا مع ما وردت به السنة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « **خيرُ الأُمورِ أَوساطُها** »(٣) .

وقال علي بن أبي طالب عليه السلام : (**خيرُ الأمورِ النَّمَطُ الأوسطُ** ؛ إليه يرجع العالي ، وبه يلحق التالي)(٤) .

---

(١) رواه الهيثمي في « بغية الباحث » (٨١٤) .

(٢) أورده في « لباب الآداب » (ص ٥٧) .

(٣) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٦٢٧٦) ، والبيهقي في « شعب الإيمان » (٦١٧٦) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٥٨/ ٣٠٤) عن سيدنا مطرِّف بن عبد الله بن الشِّخِّير رضي الله عنه موقوفاً .

(٤) أورده في « جمهرة الأمثال » (١/ ٣٣٩) ، و« عيون الأخبار » (١/ ٣٢٦) ، وانظر « غريب الحديث » لأبي عبيد (٣/ ٤٨٣) .

وقال الشاعر(١) : [من مشطور الرجز]

لا تَــذهَبَــنَّ فــي الأمــورِ فَــرَطَــا
لا تســأَلَــنَّ إنْ ســأَلْــتَ شطَطَــا
وكُــنْ مِــنَ النّــاسِ جميعــاً وسَطَــا

قالوا : **لأن زيادة العقل تُفضي بصاحبها إلى الدَّهاء والمكر** ، وذلك مذموم ، وصاحبه مَلُوم ، وقد أمر عمر بن الخطاب رضي الله عنه أبا موسى الأشعريَّ أن يعزلَ زياداً عن ولايته ، فقال زياد : يا أميرَ المؤمنين ؛ **أعَنْ مَوجِدةٍ أم خيانة ؟!** فقال : (**لا عن واحدةٍ منهما** ؛ ولٰكنْ خِفتُ أن أَحملَ على الناس فَضْلَ عقلكَ)(٢) .

ومن أجل هٰذا المحكيِّ عن عمر رضي الله عنه ما قيل قديماً : (**إفراطُ العقل مُضرٌّ بالجِدِّ**)(٣) .

وقال بعض الحكماء : (**كفاك من عقلك ما دلَّكَ علىٰ سبيل رشدك**)(٤) .

وقال بعض البلغاء : (**قليلٌ يكفي خيرٌ من كثير يُطغي**)(٥) .

وقال آخرون ـ وهو أصح القولين ـ : **زيادةُ العقلِ فضيلةٌ** ؛ لأن المكتسَبَ غيرُ محدود ، وإنّما تكون زيادة الفضائل المحمودة نقصاً مذموماً ؛ **لأن ما جاوز الحدَّ لا يُسمّىٰ فضيلةً** ؛ كالشجاع إذا زاد علىٰ حد الشجاعة . . نُسِب إلى التهوُّر ، والسخيّ إذا زاد علىٰ حد السخاء . . نُسِب إلى التبذير ، **وليس كذلك حال العقل المكتسَب** ؛ **لأن الزيادة فيه زيادةُ علم بالأمور** ، وحسنُ إصابةٍ بالظنون ، ومعرفةُ ما لم يكن إلىٰ ما يكون ، وذلك فضيلةٌ لا نقصٌ .

---

(١) أورد الأبيات في « البيان والتبيين » (١/ ٢٥٥) ، **فَرَطاً** : من يتقدم قومه للماء ، والمراد هنا : المتقدم مطلقاً ، **وفُرُطاً** : المجاوز حده .

(٢) الخبر في « البيان والتبيين » (١/ ٢٦٠) ، و« العقد الفريد » (٥/ ١١) .

(٣) أورده في « عيون الأخبار » (١/ ٣٢٩) ، و« المجالسة وجواهر العلم » (٢١٦٧) .

(٤) أورده في « الإمتاع والمؤانسة » (ص ٣٦٦) .

(٥) رواه البيهقي في « شعب الإيمان » (١٠١٨٢) ، وابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٥٧٢٢) من كلام سيدنا أبي الدرداء رضي الله عنه .

وقد رُوي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « **أفضلُ الناسِ أعقلُ الناسِ** »[1] .

وروي عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « **العقلُ حيثُ كان إلْفٌ مألوفٌ** »[2] .

وقد قيل في تأويل قوله تعالىٰ : ﴿ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ ﴾ أي : بحسَب عقله .

وقال القاسم بن محمد : (**كانت العرب تقول** : مَن لم يكن عقلُه أغلبَ خصال الخير عليه . . كان حَتْفُه في أغلب خصال الخير عليه)[3] .

وقيل في منثور الحكم : (**كلُّ شيء إذا كثُرَ . . رخُصَ إلا العقل** ؛ فإنه إذا كثُرَ . . غلا)[4] .

وقال بعض البلغاء : (**إن العاقلَ مَن عقلُه في إرشاد ، ومَن رأيُه في إمداد** ؛ فقولُه سديدٌ ، وفعلُه حميدٌ ، **والجاهلَ مَن جهلُه في إغواء ، ومَن هواه في إغراء** ؛ فقولُه سقيمٌ ، وفعلُه ذميمٌ)[5] .

وأنشدني ابنُ لَنْكَكَ لأبيه[6] : [من السريع]

مَـن لـم يكـنْ أكثـرُه عقلَـهُ   أهلكَـه أكثـرُ مـا فيـهِ

فأما الدهاءُ والمكر . . فهو مذموم ؛ لأن صاحبه صرف فَضْلَ عقلِه إلى الشرّ ،

---

(١) رواه الهيثمي في « بغية الباحث » (٨٣٧/أ) عن سيدنا عبد الله بن عباس رضي الله عنهما ، وزاد بعده : (قال ابن عباس : وذلكم نبيكم صلى الله عليه وسلم) ، وأورده في « الفردوس » (٣٤٧٦) عن سيدنا عبد الله بن عمر رضي الله عنهما موقوفاً .

(٢) أورده في « مسند الشهاب » (١٢٩) ، ورواه في « تاريخ دمشق » (٤٠٤/٨) عن سيدنا جابر رضي الله عنه : « المؤمن إلفٌ مألوفٌ » .

(٣) الخبر في « المصون في الأدب » (ص ١٣٨) وسمّى القائل محمد بن القاسم بن يوسف .

(٤) الخبر في « المصون في الأدب » (ص ١٣٨) ، ونسبه في « الإعجاز والإيجاز » (ص ٨٠) لنصر بن سيّار .

(٥) الخبر في « المستطرف » (٥٦/١) .

(٦) **ابن لنكك** : هو محمد بن محمد البصري ، توفي (٣٦٠هـ) ، **ولنكك** : الأُعَيرج . انظر « يتيمة الدهر » (٤٠٧/٢) .

ولو صرفه إلى الخير.. لكان محموداً ، وقد ذكر المغيرةُ بن شعبة عمرَ بن الخطاب رضي الله عنه فقال : (**كان ـ والله ـ أفضلَ مِن أن يَخدعَ ، وأعقلَ مِن أن يُخدَع**)[1] .

وقال عمر رضي الله عنه : (**لستُ بالخَبِّ ، ولا يخدعُني الخِبُّ**)[2] .

واختلف الناس فيمن صرف فضل عقله إلى الشرّ ؛ كزيادٍ وأشباهِه من الدُّهاة : **هل يُسمَّى الداهيةُ منهم عاقلاً ، أم لا ؟**

فقال بعضهم : **أُسمِّيه عاقلاً ؛ لوجود العقل منه** .

وقال آخرون : **لا أُسمِّيه عاقلاً حتىٰ يكونَ خيِّراً ديِّناً** ؛ لأن الخير والدِّين من موجَبات العقل ، **فأما الشرّيرُ.. فلا أسمّيه عاقلاً** ، وإنما أسمّيه صاحبَ رويّة وفكر .

وقد قيل : (**العاقلُ** : مَن عقل عن الله عز وجل أمرَه ونهيَه)[3] ، حتىٰ قال أصحاب الشافعي رضي الله عنه فيمن أوصىٰ بثُلث مالِه لأعقل الناس : (**إنه يكون مصروفاً إلى الزهَّاد**)[4] ؛ لأنهم انقادوا للعقل ولم يغترُّوا بالأمَل .

وروىٰ لقمان بن عامر ، عن أبي الدرداء رضي الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « **يا عُوَيمرُ ؛ ازدَدْ عقلاً.. تزدَدْ من ربِّك قُرْباً** » قلتُ : بأبي أنتَ وأمّي ؛ **ومَن لي بالعقل ؟!** قال : « **اجتنِبْ محارمَ الله ، وأدِّ فرائضَ الله.. تكنْ عاقلاً** ، ثم تنفَّلْ بصالحات الأعمال.. تزدَدْ في الدنيا عَقلاً ، وتزدَدْ من ربّك قُرباً ، وبه عزّاً »[5] .

---

(١) الخبر في « البيان والتبيين » (١/ ٨٦) ، و« العقد الفريد » (٢/ ٢٤١) .
(٢) الخبر في « العقد الفريد » (٢/ ٢٤١) ، **والخَبُّ** : هو المكار المخادع ، **والخِبُّ** : مصدر يوصف به مبالغة .
(٣) أورده في « حلية الأولياء » (٨/ ٣٧٠) من قول وكيع بن الجراح رحمه الله .
(٤) انظر « الحاوي الكبير » (١٠/ ٢١٤) .
(٥) رواه الهيثمي في « بغية الحارث » (٨٢٩) ، والحكيم الترمذي في « نوادر الأصول » (ص ٢٤٢) .

وأنشدني بعضُ أهل الأدب هـٰذه الأبيات ، وذكر أنها لعلي بن أبي طالب عليه السلام[١] : [من البسيط]

إنَّ المكـارمَ أخـلاقٌ مطهَّـرةٌ فـالعقـلُ أوّلُها والـدِّيـن ثـانيهـا
والعلـمُ ثـالثُهـا والحِلْـمُ رابعُهـا والجُودُ خامسُها والعُرْفُ ساديها
والبِـرُّ سـابعُهـا والصبـرُ ثـامنُهـا والشكرُ تاسعُها واللينُ عاشيها
والنفسُ تعلـمُ أنـي لا أُصـدِّقُهـا ولسـتُ أَرشُـدُ إلا حيـنَ أَعصيهـا
والعينُ تعرفُ في عينَيْ مُحدِّثها إن كان من حِزبها أو من أعاديها
عينـاكَ قـد دَلَّتـا عينـيَّ منكَ علىٰ أشيـاءَ لـولاهمـا مـا كنـتَ تبـديهـا

واعلم : أن العقل المكتسَب لا ينفكُّ عن العقل الغريزيّ ؛ لأنه نتيجةٌ منه ، **وقد ينفكُّ العقلُ الغريزيُّ عن العقل المكتسَب** ، فيكون صاحبُه مسلوبَ الفضائل ، موفورَ الرذائل ؛ كالأَنوَكِ الذي لا تجد له فضيلةً ، والأحمقِ الذي قلَّما يخلو من رذيلة[٢] .

وقد رُوي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « **الأحمقُ أبغضُ خَلْقِ الله إليه** ؛ إذ حرمَه أعزَّ الأشياء عليه »[٣] .

وروي عن النبي عليه السلام أنه قال : « **الأحمقُ كالفخَّار لا يُرقَعُ ولا يُشعَبُ** »[٤] .

وقال بعض الحكماء : (**الحاجةُ إلى العقل أقبحُ من الحاجة إلى المال**)[٥] .

وقال بعض البلغاء : (دولةُ الجاهل عبرةُ العاقل)[٦] .

---

(١) الأبيات في « ديوانه » (ص ٢٦٥) .
(٢) **الأنوك** : العاجز الجاهل العيي في كلامه ، **وأول درجات الجاهل** : المائق ، ثم الرقيع ، ثم الأنوك ، ثم الأحمق ، نسأل الله العافية .
(٣) ذكره النويري في « نهاية الأرب » (٣/ ٣٥٣) .
(٤) رواه في « روضة العقلاء » (١/ ٤٩٣ـ ٤٩٤) من قول وهب بن منبه رحمه الله .
(٥) أورده في « ديوان المعاني » (٢/ ٩٢) ونسبه لأرسطاطاليس .
(٦) أورده في « الكشكول » (٢/ ١٣١) .

وقال أنوشَرْوان لبُزُرْجُمِهْرَ : (أيُّ الأشياء خيرٌ للمرء ؟ قال : **عقلٌ يعيش به** ، قال : فإن لم يكن ؟ قال : **فإخوانٌ يسترون عيبه** ، قال : فإن لم يكن ؟ قال : **فمالٌ يتحبَّبُ به إلى الناس** ، قال : فإن لم يكن ؟ قال : **فعِيٌّ صامتٌ** ، قال : فإن لم يكن ؟ قال : **فموتٌ جارفٌ**)[1] .

وقال سابورُ بن أردشِيرَ : (**العقل نوعان** : أحدهما مطبوعٌ ، والآخر مسموعٌ ، ولا يصلح واحدٌ منهما إلا بصاحبه) ، فأخذ ذلك بعض الشعراء فقال[2] : [من الهزج]

رأيــتُ العقـــلَ نـــوعيـــن ... فمسمـــــوعٌ ومطبــــوعُ
فـــلا ينفـــعُ مطبـــوعٌ ... إذا لـــم يـــكُ مسمـــوعُ
كمـــا لا تنفـــعُ الشمـــسُ ... وضـــوءُ العيـــنِ ممنـــوعُ

وقد وصف بعضُ الأدباء العاقلَ بما فيه من الفضائل ، والأحمقَ بما فيه من الرذائل ، فقال : (**العاقلُ إذا والىٰ** . . بذل في المودَّة نَصْرَه ، **وإذا عادىٰ** . . رفعَ عن الظلم قَدْرَه ، فيَسعدُ مُواليه بعقله ، ويعتصم مُعاديه بعدله ، **إن أحسن إلىٰ** أحد . . ترك المطالبةَ بالشُّكْر ، **وإن أساء إليه مسيءٌ** . . تطلَّب له أسبابَ العُذْر ، أو منحه الصفحَ والعفو .

والأحمقُ ضالٌّ مضِلٌّ ؛ **إن أُونِس** . . تكبَّر ، **وإن أُوحِش** . . تكدَّر ، **وإن استُنطِق** . . تخلَّف ، **وإن تُرِك** . . تكلّف ، مجالستُه مهنة ، ومعاتبتُه محنة ، ومحاورتُه تغُرّ ، وموالاتُه تضُرّ ، ومقاربتُه عمىً ، ومقارنته شقاً) .

وكانت ملوكُ الفرس **إذا غضبت علىٰ عاقل** . . **حبسته مع جاهل** .

والأحمقُ يسيءُ إلىٰ غيره ويظنُّ أنه قد أحسن إليه ، فيطالبُه بالشُّكر ، **ويُحسَنُ إليه** فيظن أنه قد أساء إليه ، فيطالبُه بالوِتْر[3] ؛ **فمساوىءُ الأحمق لا تنقضي** ،

---

(١) الخبر في « البيان والتبيين » (١/ ٢٢١) .
(٢) الأبيات في « ديوان المعاني » (١/ ١٢٥) ، و« روضة العقلاء » (١/ ٩٠) ، وهي في « ديوان الإمام علي » رضي الله عنه (ص ١٦١) .
(٣) **الوِتْر** : الثأر ، **والمعنىٰ** : أن الأحمق يظن أن المحسِن قد أساء إليه ، فيطالبه بالوتر .

وعيوبُه لا تتناهىٰ ، ولا يقف النظر منها إلىٰ غاية إلا لوَّحت مما وراءها بما هو أدنىٰ منها وأردىٰ ، وأمرُّ وأدهىٰ ، **فما أكثرَ العِبرَ لمن نظر ، وأنفعَها لمن اعتبر !!**

وقال الأحنف بن قيس : (**من كلِّ شيءٍ يُحفَظ الأحمقُ إلا من نفسه**)[1] .

وقال بعض البلغاء : (**إن الدنيا ربما أقبلتْ على الجاهل بالاتِّفاق ، وأدبرتْ عن العاقل بالاستحقاق** ؛ فإن أتتكَ منها سُهْمةٌ مع جهل[2] ، أو فاتتكَ فيها بُغيةٌ مع عقلٍ . . **فلا يحملَنَّكَ ذلك على الرغبة في الجهل ، والزهد في العقل** ، فدولةُ الجاهل من الممكنات ، ودولةُ العاقل من الواجبات ، وليس مَن أمكنه شيءٌ من ذاته كمن استوجبه بآلته وأدواته) .

وبعدُ : فدولةُ الجاهل كالغريب الذي يَحِنُّ إلى النُّقْلة ، ودولةُ العاقل كالنَّسيب الذي يَحِنُّ إلى الوُصْلة ، **فلا يفرحِ المرءُ بحالةٍ جليلةٍ نالها بغير عقلٍ** ، أو منزلةٍ رفيعةٍ حَلَّها بغير فضل ؛ **فإن الجهلَ يُزِلُّه منها ، ويزيله عنها** ، ويحطُّه إلىٰ رتبته ، ويردُّه إلىٰ قيمته ، بعد أن تظهر عيوبُه ، وتكثر ذنوبُه ، **ويصير مادحُه هاجياً ، ووليُّه مُعادياً** .

واعلم : أنه بحسَب ما يُنشَر من فضائل العاقل . . **كذلك يظهر من رذائل الجاهل** ؛ حتىٰ يصيرَ مَثَلاً في الغابرين ، وحديثاً في الآخِرين ، مع هتكته في عصره ، وقبح ذكره في دهره ؛ كالذي رواه عطاء ، عن جابر رضي الله عنه قال : (**كان في بني إسرائيل رجلٌ له حمار** ، فقال : **يا رب ؛ لو كان لك حمارٌ . . لَعلفتُه مع حماري** ، فهمَّ به نبيٌّ من أنبياء الله ، فأوحى الله تعالىٰ إليه : **إنما أُثيب كلَّ إنسانٍ علىٰ قَدْر عقله**)[3] .

واستعمل معاويةُ رضي الله عنه رجلاً من كلب ، فذُكِر المجوسُ يوماً عنده ، فقال : لعن الله المجوس ينكحون أمهاتهم ، **والله ؛ لو أُعطيتُ عشرة آلاف**

---

(١) أورده في « التمثيل والمحاضرة » (ص ٣٣) .

(٢) **سُهمة** ـ علىٰ وزن غُرفة ـ : النصيب .

(٣) رواه البيهقي في « شعب الإيمان » (٤٣١٨ ، ٤٣١٩) موقوفاً ومرفوعاً .

درهم . . ما نكحتُ أمي ، فبلغ ذلك معاويةَ رضي الله عنه ، فقال : (**قبَّحه الله ، أترونه لو زادوه . . فعل ؟!**) وعزله[1] .

ووَلِيَ الربيعُ العامريُّ ـ وكان من النَّوكىٰ ـ بعضَ منابر اليمامة ، **فأقاد كلباً بكلب** ، فقال فيه الشاعر : [من الطويل]

شهـدتُ بـأنّ اللهَ حقّـاً لقـاؤُه ... وأنّ الـربيـعَ العـامـريَّ رَقيـعُ
أَقـادَ لنـا كَلْبـاً بكلـبٍ ولـم يـدَعْ ... دمـاءَ كـلابِ المسلميـن تضيـعُ[2]

وليس لمَعارِّ الجهل غايةٌ ، ولا لمَضارِّ الحُمق نهايةٌ ، وقد قال الشاعر[3] : [من البسيط]

لكـلِّ داءٍ دواءٌ يُستطَـبُّ بـهِ ... إلا الحماقةَ أعيَتْ مَنْ يُداويهَا

---

(١) الخبر في « عيون الأخبار » (٢/ ٤٥) ، و« البيان والتبيين » (٢/ ٢٥٩) .

(٢) الخبر في « البيان والتبيين » (٢/ ٢٥٩) ، والبيتان لحميد بن ثور الهلالي في « ديوانه » (ص ١٤٤) ، وقوله : (حقاً) كذا في النسخ بالنصب إلا (د) ، وانظر توجيهها في « منهاج اليقين » (ص٣٤) ، ورقيع : أحمق .

(٣) البيت في « العقد الفريد » (٢/ ٣٥٧) ، و« الكشكول » (٢/ ٣٥٣) .

فَصْلٌ

[في ذمّ الهوىٰ]

فأما الهوىٰ . . فهو عن الخير صادٌّ ، وللعقل مُضادٌّ ؛ لأنه ينتج من الأخلاق قبائحَها ، ويظهر من الأفعال فضائحها ، ويجعل سترَ المروءة مهتوكاً ، ومدخلَ الشرِّ مسلوكاً .

قال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما : (**الهوىٰ : إلـٰهٌ يُعبَدُ من دون الله** ، ثم تلا قوله تعالىٰ : ﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ ﴾)(١) .

وقال عكرمة في قوله تعالىٰ : (﴿ وَلَـٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ ﴾ يعني : **بالشهوات** ، ﴿ وَتَرَبَّصْتُمْ ﴾ يعني : **بالتوبة** ، ﴿ وَٱرْتَبْتُمْ ﴾ يعني : **في أمر الله** ، ﴿ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِيُّ ﴾ يعني : **بالتسويف** ، ﴿ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ ﴾ يعني : **الموت** ، ﴿ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴾ يعني : **الشيطان**)(٢) .

وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « **طاعةُ الشهوة داءٌ ، وعصيانُها دواءٌ** » .

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : (**اقدَعوا هـٰذه النفوسَ عن شهواتها** ؛ فإنها طلاّعة تنزِعُ إلىٰ شرِّ غايةٍ ، **إن هـٰذا الحقَّ ثقيل مُرِّي ، وإنّ الباطلَ خفيفٌ وَبي** ، وتركُ الخطيئة خيرٌ من معالجة التوبة ، وربَّ نظرةٍ زرعَتْ شهوةً ، وشهوةِ ساعةٍ أورثَتْ حزناً طويلاً)(٣) .

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : (**أخاف عليكم اثنتين : اتِّباعَ الهوىٰ ، وطولَ الأمل ؛ فإنَّ اتِّباعَ الهوىٰ يصدُّ عن الحق ، وطولَ الأمل يُنسي الآخرةَ**)(٤) .

---

(١) أورده في « عيون الأخبار » (١/ ٣٧) ، و« البيان والتبيين » (١/ ٢٣٥) .

(٢) رواه البيهقي في « شعب الإيمان » (٦٩١٢) عن عكرمة عن سيدنا عبد الله بن عباس رضي الله عنهما .

(٣) أورده في « البيان والتبيين » (٣/ ١٣٨) ، و« صبح الأعشىٰ » (١/ ٢١٤) ، واقدعوا : امنعوا ، وطلاعة : تكثر التطلع والميل إلىٰ ما تشتهيه ، والمُرِّي ـ علىٰ وزن (دُرِّي) ـ : دواء معروف بين الأطباء ؛ والمعنىٰ : منع النفس عن شهواتها وإن كان ثقيلاً ؛ فإنه يحفظ صحة الأبدان .

(٤) أورده في « البيان والتبيين » (٢/ ٥٣) .

وقال الشعبيُّ : (**إنَّما سُمِّي الهوىٰ هوىً ؛ لأنَّه يَهوي بصاحبه**)[1] .

وقال أعرابي : (**الهوىٰ هَوانٌ** ؛ ولـٰكن غُلط باسمه) ، فأخذه الشاعر فقال[2] : [من الكامل]

إنَّ الهوانَ هو الهوىٰ قُلِبَ اسمُهُ ... فـإذا هَـوِيـتَ فقـد لَقِيتَ هَـوانَـا

وقيل في منثور الحكم : (**مَن أطاع هَواه .. أعطىٰ عدوَّه مُناه**)[3] .

وقـال لقمـانُ الحكيـم : (**العقـلُ** : صـديـقٌ مقطـوعٌ ، **والهـوىٰ** : عـدوٌّ متبوعٌ)[4] .

وقال بعض البلغاء : (**أفضلُ الناس** : **مَن** عصىٰ هواه ، **وأفضلُ منه** : **مَن** رفض دنياه) .

وقال هشام بن عبد الملك بن مروان[5] : [من الطويل]

إذا أنتَ لم تعصِ الهوىٰ قادكَ الهوىٰ ... إلـىٰ كـلِّ مـا فيـه عليـكَ مَقـالُ

قال ابن المعتز : (لم يقل هشام بن عبد الملك غير هـٰذا البيت) .

وقال الشاعر[6] : [من الطويل]

إذا ما رأيتَ المرءَ يَقتادُهُ الهوىٰ ... فقـد ثكِلَتْـه عنـد ذاكَ ثَـواكِلُـهْ
وقد أشمَتَ الأعداءَ جهلاً بنفسهِ ... وقـد وجَـدَتْ فيـه مَقـالاً عـواذِلُـهْ
وما يَزَعُ النفسَ اللَّجوجَ عنِ الهوىٰ ... منَ الناسِ إلا حازمُ الرأيِ كامِلُهْ

---

(١) أورده أبو عبيد في « الأمثال » (ص ٢٢٤) .
(٢) البيت في « الموشىٰ » (ص ٨٨) ، و« محاضرات الأدباء » (١/ ٣٠) .
(٣) أورده في « الإمتاع والمؤانسة » (ص ٣٦٣) ، و« التمثيل والمحاضرة » (ص ٤٥٣) .
(٤) أورده في « محاضرات الأدباء » (١/ ٢٨) .
(٥) البيت في « عيون الأخبار » (١/ ٣٧) .
(٦) أورد الأبيات في « حلية الأولياء » (٧/ ٢٧٦) .

فلما كان **الهوىٰ غالباً** ، وإلىٰ سبيل المَهالك مُورِداً . . **جُعِل العقلُ عليه رقيباً مجاهداً** ، يلاحظ عَثْرةَ غفلته ، ويدفع سَطوة بادرته ، ويوضح خداع حيلته ؛ **لأن سلطان الهوىٰ قويٌّ** ، **ومدخل مَكْره خفيٌّ** ، ومن هٰذين الوجهين يؤتى العاقل حتىٰ تنفذَ أحكام الهوىٰ عليه ؛ أعني **بأحد الوجهين** : قوة سلطانه ، **وبالآخر** : خفاء مَكْره .

* * *

فأما الوجه الأول . . فهو أن يَقوىٰ سلطانُ الهوىٰ بكثرة دواعيه ؛ حتىٰ تستوليَ عليه مغالبة الشهوات ، **فيَكلَّ العقل عن دفعها** ، **ويضعفَ عن منعها** ، مع وضوح قبحها ؛ في العقل المقهور بها .

وهٰذا يكون في الأحداث أكثر ، **وعلى الشباب أغلب** ؛ لقوة شهواتهم ، وكثرة دواعي الهوى المتسلِّط عليهم ، وأنهم ربما جعلوا الشباب عذراً لهم ؛ كما قال محمد بن بشير[1] : [من الكامل]

كـلٌّ يَـرىٰ أنَّ الشبـابَ لَـهُ ... فـي كـلِّ مَبلـغِ لـذَّةٍ عُـذْرُ

ولذلك قال بعض الحكماء : (**الهوىٰ ملِكٌ غَشُومٌ ، ومُتَسلِّطٌ ظَلُومٌ**)[2] .

وقال بعض الأدباء : (**الهوىٰ عَسُوفٌ ، والعدلُ مألوفٌ**) .

وقال بعض الشعراء : [من السريع]

يـا عـاقـلاً أَردى الهـوىٰ عقلَـهُ ... ما لَكَ قد سُدَّتْ عليكَ الأمورْ

أَتجعـلُ العقـلَ أسيـرَ الهـوىٰ ... وإنمـا العقـلُ عليـه أميـرْ

وحسمُ ذلك : أن يستعين بالعقل على النفس النَّفُور ، فيشعرَها ما في عواقب الهوىٰ من شدَّة الضَّرَر ، وقُبح الأثَر ، وكثرة الإجرام ، وتراكم الآثام ؛ فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: « **حُفَّتِ الجنّةُ بالمكاره، وحُفَّتِ النارُ بالشَّهَوات** »[3] ،

---

(١) أورد البيت في « المحب والمحبوب » (٤/٣٨١) ، وهو في « ديوان الأحوص » (ص ١٤١) .
(٢) أورده في « روضة المحبين » (ص ١٢٩) .
(٣) رواه مسلم (٢٨٢٢) ، والترمذي (٢٥٥٩) عن سيدنا أنس بن مالك رضي الله عنه .

أخبر : **أن الطريقَ إلى الجنة** احتمالُ المكاره ، **والطريقَ إلى النار** اتّباعُ الشهوات .

وقال علي بن أبي طالب عليه السلام : (**إياكم وتحكيمَ الشَّهَوات على أنفسكم** ؛ فإن عاجلَها ذميمٌ ، وآجلَها وخيمٌ ، **فإن لم ترَها تنقادُ بالتخويف والإرهاب** . . فسوِّفها بالتأميل والإرغاب ؛ فإن الرغبةَ والرهبةَ إذا اجتمعا على النفس . . ذلَّت لهما وانقادت) .

وقد قال ابن السماك : (**كن لهواكَ مُسوِّفاً ، ولعقلكَ مُسعِفاً** ، وانظر ما تسوء عاقبتُه . . فوطِّنْ نفسكَ علىٰ مُجانبته ؛ **فإنَّ ترك النفس وما تهوىٰ داؤها ، وترك ما تهوىٰ دواؤها** ، فاصبرْ على الدواء لما تخاف من الداء) .

وقال الشاعر[1] : [من الطويل]

صبرتُ على الأيامِ حتىٰ تولَّتِ ... وألزمتُ نفسي صَبْرَها فاستمرَّتِ
وما النفسُ إلا حيثُ يجعلُها الفتىٰ ... فإنْ أُطمِعت تاقَتْ وإلا تسلَّتِ

فإذا انقادتِ النفسُ للعقل بما قد أُشعِرتْ من عواقب الهوىٰ . . **لم يلبثِ الهوىٰ أن يصيرَ بالعقل مزجوراً** ، **وبالنفس مقهوراً** ، ثم له الحظُّ الأوفر في ثواب الخالق وثناء المخلوقين ، قال الله تعالىٰ : ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴾ .

وقال الحسن البصري : (**أفضلُ الجهاد** : جهادُ الهوىٰ)[2] .

وقال بعض الحكماء : (**أعزُّ العِزِّ** : الامتناعُ من مَلِكِ الهوىٰ) .

وقال بعض البلغاء : (**خيرُ الناس** : مَن أخرج الشهوةَ من قلبه ، وعصىٰ هواه في طاعة ربِّه)[3] .

وقال بعض الأدباء : (**من أماتَ شهوتَه . . أحيا مروءتَه**)[4] .

وقال بعض العلماء : (ركَّب اللهُ الملائكةَ من عقلٍ بلا شهوة ، وركَّب البهائمَ

---

(١) البيتان لعمرو بن معدي كرب في « ديوانه » (ص ١٩٨) .
(٢) أورده في « بهجة المجالس » (٢/ ٨١٠) من كلام عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالىٰ .
(٣) أورده في « المستطرف » (١/ ٨٧) .
(٤) أورده في « المستطرف » (١/ ٩٠) .

من شهوةٍ بلا عقل ، وركَّب ابنَ آدمَ من كليهما ، **فمَن غلب عقلُه شهوتَه . . فهو خيرٌ** من الملائكة ، **ومن غلبت شهوتُه عقلَه . .** فهو شرٌّ من البهائم)[1] .

وقيل لبعض الحكماء : (**من أشجعُ الناس وأحراهم بالظَّفَر في مجاهدته ؟** قال : مَن جاهد الهوىٰ طاعةً لربِّه ، واحترس من ورود خواطر الهوىٰ علىٰ قلبه)[2] .

وقال بعض الشعراء : [من الرجز]

قد يُدركُ الحازمُ ذو الرأي المُنىٰ   بطـاعـة الحَـزْم وعصيـان الهَـوىٰ

وأما الوجه الثاني . . فهو أن يخفيَ الهوىٰ مكرَه ؛ حتىٰ تتموَّهَ أفعالُه على العقل ، **فيتصوَّرَ القبيحُ حسناً ، والضررُ نفعاً** ، وهـٰذا يدعو إليه أحدُ شيئين :

إما أن يكون للنفس ميلٌ إلىٰ ذلك الشيء ، فيخفىٰ عنها القبيحُ بحسن ظنها ، وتتصوَّره حسناً لشدة ميلها ؛ ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم : « **حبُّكَ الشيءَ يُعمي ويُصِمُّ** »[3] أي : يُعمي عن الرشد ، ويُصِمُّ عن قبول الموعظة .

وقال علي بن أبي طالب عليه السلام : (**الهوىٰ عمىً**) .

وقال الشاعر[4] : [من الرمل]

. . . .   حَسَـنٌ فـي كـلِّ عيـنٍ مَـن تَـوَدُّ

وقال عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب رضي الله عنهم أجمعين[5] : [من الطويل]

ولستُ بِـراءٍ عيبَ ذي الـوُدِّ كلَّـه   ولا بعضَ ما فيه إذا كنتُ راضيَا

---

(١) أورده في « التمثيل والمحاضرة » (ص ١٧٢) ، و« الكشكول » (٢/ ٤٢٦) .
(٢) أورده في « التمثيل والمحاضرة » (ص ٤٥٣) .
(٣) رواه أبو داوود (٥١٣٠) ، والبيهقي في « شعب الإيمان » (٤٠٧) عن سيدنا أبي الدرداء رضي الله عنه .
(٤) البيت لعمر بن أبي ربيعة في « ديوانه » (ص ١٠٦) ، وصدره : (فتضاحكْنَ وقد قُلن لها) .
(٥) البيت في « ديوانه » (ص ٩٠) .

فعينُ الرِّضا عن كل عيبٍ كليلةٌ ... ولٰكنَّ عين السُّخْطِ تُبدي المَساويَا

وأما السبب الثاني[1] . . فهو استثقالُ الفكر في تمييز ما اشتبه ، وطلبُ الراحة في اتّباع ما يَسهُل ؛ **حتىٰ يظنَّ أن ذلك أوفقُ أمرَيه ، وأحمدُ حالَيه** ؛ اغتراراً بأن الأسهلَ محمودٌ ، والأعسرَ مذمومٌ ، فلن يعدم أن يتورَّط بخُدَع الهوىٰ وزينة المكر ، في كلِّ مَخُوفٍ حذِر ، ومكروهٍ عسِر ؛ ولذلك قال عامر بن الظَّرِب : (**الهوىٰ يقظانُ ، والعقلُ راقدٌ ، فمن ثَمَّ غُلِب**)[2] .

وقال سليمان بن وهب : (**الهوىٰ أمتعُ ، والرأي أنفعُ**)[3] .

وقيل في المثل : (**العقلُ وزيرٌ ناصحٌ ، والهوىٰ وكيلٌ فاضحٌ**)[4] .

وقال الشاعر[5] : [من الطويل]

إذا المرءُ أعطىٰ نفسَه كلَّ ما اشتهَتْ ... ولم ينهَهَا تاقَتْ إلىٰ كلِّ باطلِ
وساقَتْ إليه الإثمَ والعارَ بالذي ... دعتْـهُ إليـه مـن حـلاوةِ عـاجـلِ

وحسم السبب الأول : أن يجعل فكر قلبه حَكَماً علىٰ نظر عينه ؛ **فإن العين رائدُ الشهوة** ، والشهوة من دواعي الهوىٰ ، **والقلب رائد الحق** ، والحق من دواعي **العقل** .

وقد قال بعض الحكماء : (**نظرُ الجاهل** بعينه وناظره ، **ونظرُ العاقل** بقلبه وخاطره) .

ثم يتَّهمَ نفسه في صواب ما أحبَّتْ ، وتحسين ما اشتهت ؛ ليصحَّ له الصواب ، ويستبينَ له الحقُّ ؛ **فإن الحقَّ أثقلُ محمَلاً** ، وأصعبُ مركباً .

فإن أشكل عليه أمران . . اجتنب أحبَّهما إليه ، وترك أسهلَهما عليه ؛ فإن

---

(١) أي : الداعي إلىٰ إخفاء الهوىٰ مكره .

(٢) أورده في « عيون الأخبار » (١/ ٣٧) .

(٣) أورده في « التذكرة الحمدونية » (٦/ ١١٣) ، و« محاضرات الأدباء » (٣/ ١٩٤) .

(٤) أورده في « البصائر والذخائر » (١/ ١٣١) .

(٥) أوردهما في « المجالسة وجواهر العلم » (ص ٣٨٢) بلا نسبة ، وفي « معجم الأدباء » (٤/ ٨٥) للحسين بن محمد النحوي المعروف بالبارع .

النفس عن الحق أنفرُ ، وللهوىٰ آثَرُ ، وقد قال العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه : (**إذا اشتبه عليك أمران . . فدَعْ أحبَّهما إليك ، وخذ أثقلَهما عليك**)[١] .

وعلة هٰذا القول : هو أن الثقيل تبطىء النفس عن التسرُّع إليه ، فيتضح مع الإبطاء وتطاول الزمان صوابُ ما استعجم ، وظهورُ ما استبهم ، وقد قال علي بن أبي طالب عليه السلام : (**مَن تفكَّر . . أبصَر**)[٢] .

والمحبوبُ السهل تُسرع النفس إليه ، وتعجل بالإقدام عليه ، فيقصُر الزمان عن تصفُّحه ، ويفوت استدراكه لتقضّي فعله ، فلا ينفع التصفحُ بعد العمل ، ولا الاستبانةُ بعد الفَوْت ، وقد قال بعض الحكماء : (**ما كان عنك مُعرِضاً . . فلا تكن به متعرِّضاً**) .

وقال الشاعر[٣] : [من الوافر]

أليسَ طِلابُ ما قد فات جَهْلاً ... وذِكْرُ المرءِ ما لا يستطيعُ

ولقد وصف بعض البلغاء حال الهوىٰ وما يقارنه من مِحَن الدنيا فقال : (**الهوىٰ مطيّة الفتنة ، والدنيا دار المِحنة** ، فانزل عن الهوىٰ . . تسلَمْ ، وأعرِضْ عن الدنيا . . تغنَمْ ، **ولا يغرنَّكَ هواك بطيب الملاهي ، ولا تفتننَّكَ دنياك بحُسن العَواري** ؛ فمدة اللهو تنقطع ، وعارية الدهر تُرتجَع ، **ويبقىٰ عليك ما ترتكبه من المحارم** ، وتكتسبه من المآثم) .

وقال علي بن عبد الله الجعفري : (سمعتني امرأةٌ بالطواف وأنا أنشد : [من البسيط]

أهوىٰ هوى الدِّين واللَّذّاتُ تُعجبني ... فكيف لي بهوى اللَّذّاتِ والدِّينِ

فقالت : **هما ضَرّتان ، فذَرْ أيتَهما شئتَ ، وخذِ الأخرىٰ**)[٤] .

---

(١) أورده في « عيون الأخبار » (١/ ٣٧) ونسبه لبزرجمهر ، وفي « الأمثال » (ص ٢٢٤) .
(٢) أورده في « العقد الفريد » (٢/ ١٠٧) ، و« التذكرة الحمدونية » (٥/ ١٨٥) من كلام الزرقاء بنت عدي الهمدانية .
(٣) البيت في « جمهرة الأمثال » (١/ ٣٣٨) بلا نسبة .
(٤) أورده في « الأغاني » (٢٦/ ٨٩٤٧) ، و« الوافي بالوفيات » (٢١/ ١٨٩) ، وهو علي بن المديني رحمه الله تعالىٰ .

فأما فرقُ ما بين **الهوىٰ** والشهوة مع اجتماعهما في العلة والمعلول واتفاقهما في الدلالة والمدلول . . فهو أن الهوىٰ مختص بالآراء والاعتقادات ، والشهوة تختص بنيل المستلَذّات ، فصارت الشهوةُ من نتائج الهوىٰ وهي أخصُّ ، والهوىٰ أصلٌ وهو أعمُّ .

ونحن نسأل الله تعالىٰ أن يكفيَنا دواعيَ الهوىٰ ، ويصرفَ عنا سُبل الرَّدىٰ ، **ويجعل التوفيق لنا قائداً** ، والعقلَ لنا مرشداً ؛ فقد حُكي : أن الله تعالىٰ أوحىٰ إلىٰ عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام : « **عِظْ نفسَكَ ، فإنِ اتعظَتْ . . فعِظِ الناسَ ، وإلا . . فاستحْيِ مني** »(١) .

وقال محمد بن كُناسة(٢) : [من الكامل]

ما مَن روىٰ أدباً فلم يعملْ بهِ ... ويكفَّ عن زيغِ الهوىٰ بأديبِ
حتىٰ يكونَ بما تعلَّمَ عاملاً ... من صالحٍ فيكونَ غيرَ مَعيبِ
ولقلَّما تُغني إصابةُ قائلٍ ... أفعالُه أفعالُ غيرِ مُصيبِ

وقال آخر(٣) : [من الكامل]

يا أيُّها الرجلُ المعلِّمُ غيْرَهُ ... هلاّ لنفسِكَ كانَ ذَا التعليمُ
تَصفُ الدواءَ لِذي السَّقامِ وَذِي الضَّنىٰ ... كيمَا يَصِحَّ بِهِ وَأنتَ سَقيمُ
ابدأْ بنفسكَ فانهَهَا عن غَيِّها ... فإذا انتهَتْ عنه فأنتَ حكيمُ
فهناكَ تُعذَرُ إن وَعظتَ ويُقتدىٰ ... بالقول منكَ ويُقبَلُ التعليمُ
لا تنهَ عن خُلقٍ وتأتيَ مثلَهُ ... عارٌ عليكَ إذا فعلتَ عظيمُ

حكىٰ أبو فروةَ : (أن طارقاً صاحبَ شُرْطة خالد بن عبد الله القَسْري مرَّ بابن شُبْرُمةَ وطارقٌ في موكبه ، فقال ابنُ شُبْرُمةَ : [من الطويل]

أراها وإنْ كانت تُحَبُّ كأنَّها ... سحابةُ صيفٍ عن قليلٍ تَقشَّعُ

---

(١) رواه أبو نعيم في « حلية الأولياء » (٢/ ٣٨٢) عن مالك بن دينار رحمه الله .
(٢) الأبيات في « الأغاني » (١٣/ ٤٨٥٦) ، و« معجم الشعراء » (٢/ ٢٤٣) لأحمد بن يحيى البلاذريّ .
(٣) الأبيات لأبي الأسود الدؤلي في « ديوانه » (ص ٤٠٤) ، و« خزانة الأدب » (٨/ ٥٦٧) .

اللهم ؛ لي ديني ، ولهم دنياهم ، فاستُعمِلَ ابنُ شُبْرُمةَ بعد ذلك على القضاء ، فقال له ابنه : **أتذكر قولَك يومَ كذا إذ مر بك طارق في موكبه** ؟ فقال : يا بني ؛ إنهم يجدون مثلَ أبيك ، ولا يجد أبوك مثلَهم ، إنَّ أباك أكل من حَلْوائهم ، فحطَّ في أهوائهم)[1] .

أما ترىٰ هٰذا الدَّيِّنَ الفاضلَ كيف عُوجِل بالتقريع ، وقُوبِل بالتوبيخ من أخصِّ ذَويه ، ولعله من أبرِّ بنيه ؟!

فكيف بنا ونحن أطلقُ منه عِناناً ، وأنطقُ منه جَناناً إذا رمقَتْنا أعينُ المتتبِّعين ، وتناولَتْنا ألسنُ المتعنِّتين . . هل نجد غيرَ توفيق الله تعالىٰ مَلاذاً ، أو سوىٰ عصمته مَعاذاً ؟!

---

(١) أورده في « البيان والتبيين » (٣/١٤٦) ، و« عيون الأخبار » (١/٥٦) .

